



## أخبرونا : قالب الطوب عندنا أهم من العسكري!

بقلم: رائف محمد الويشي

7 ديسمبر 2016

كان أسبوع العقاب الذي قرره العميد " ملوخية " قد أوصل أغلب العساكر في مركز تدريب الدفاع الجوي في منطقة دهشور إلي حالة من الإنهالك الشديد ، فقد تجمعت أمامنا كل الصعاب في وقت واحد :

- \* شهر رمضان نمضيه في حر شمس أبريل في قلب الصحراء ..
- \* طعام تأنفه النفس والعين..
- \* مياه غير صالحة للشرب الحيواني من أبيار قذرة مدفونة تحت الأرض يطفو علي سطحها فئران هالكة ..
- \* طوابير جري جماعية عقابية تبدأ من أول ضوء وتنتهي بعد الظهر ..

كنا ننزف دما من مؤخراتنا بسبب المياه الملوثة طوال الأسبوع الأول للعقاب ! إلا أن العميد " ملوخية " قرر تمديد الأسبوع العقابي إلي أسبوع آخر ! تحول الأمر في الأسبوع الثاني إلي وباء نزيفي بين الزملاء بسبب تلك المياه ، لكن " ملوخية " لم يعر أدني اهتمام بالظروف التي كنا نمر بها !!

قام الزملاء المسيحيون من عساكر الكتيبة بمجهود نشكرهم عليه يتحمل مشاق الخدمة في المطبخ بسبب ظروف رمضان ، كان علي كل مساء أن أمر علي الخيام لتجهيز عساكر المطبخ لصباح اليوم التالي ، يسمونهم عساكر الطلبة ( بضم الطاء ) ، عسكري المطبخ هو بمثابة عبد من العبيد في يد الطباخين ، لم ينتظر الإخوة المسيحيون كي أذهب إلي مكانهم ، كانوا يأتون إلي خيمتي في كل مساء ومعهم أسماء خدمة المطبخ لليوم التالي..

في أحد الليالي - في الثالثة صباحا - أيقظني أحد زملائي العساكر وهو يصرخ :

- جورج بيموت !
- إيه اللي حصل !
- عنده آلام شديدة في جانبه ، ونخشى أن تكون انفجار مرارة !

تركت خيمتي وجريت مسافة نصف كيلو حتي وصلت إلي بوابة الأمن طالبا سيارة لنقله للمستشفى ! تعاون معي أمن البوابة ، أيقظوا علي الفور أحد السائقين وكانت السيارة قريبة من بوابة الأمن ، إلا أنهم طلبوا مني الحصول علي تصريح من ضابط عظيم المركز قبل خروج السيارة من باب الأمن ، عرض العسكري السائق أن يأخذني إلي مكان ضابط عظيم..

نسي السائق أن يأخذ معه كلمة السر كي يسمحوا لنا بمقابلة الضابط في هذه الساعة المتأخرة ، لكن عساكر الحراسة في مقر الضابط تعاونوا معنا إلي حد بعيد وسمحوا لي بلفائه دون كلمة السر ، خشي السائق أن يدخل معي وبقي خارج الغرفة ..

كان الضابط برتبة مقدم ، كان يستلقي علي سريره ويضع قدما علي قدم ، كان قد أنهى لتوه طعام السحور ، بقايا من زجاجة عصير وعظام دجاجة وبعض الخضروات كانت علي المائدة ، كان هناك مروحتان وثلاجة في غرفته ، لم يتحرك من سريره عند دخولي وتكلم معي ببرود شديد دون أن ينظر لي :

- عندي عسكري بيموت يافندم !

- ليه ؟

- يشتكي من ألم شديد في جانبه وأخشى أن تكون مرارة ..

- روح البوابة وخذ سيارة من هناك تنقله للمستشفى ..

- أنا فعلت ذلك يافندم ، لكن السائق يطلب تصريحا من حضرتك بالخروج..

- قل له : " إطلع يا ابن المرارة المت.... " ، هو هيفهم عطلول !

من حسن الحظ أن السائق لم يدخل معي الغرفة ، فقد وقف خارجها ، لكنه كان يستمع للحوار الذي دار بيني وبين ضابط عظيم ، نقلنا جورج فوراً إلي المستشفى ، كانت رؤيتي للأسفلت مرة أخرى قد أدخلت في نفسي بعض الراحة النفسية ، لكن جورج لم يعد معنا ولم نره مرة أخرى حتي نهاية فترة التدريب ، هل مات جورج أم لا؟! الله أعلم !

بعد نهاية الأسبوع الثاني من العقاب كنا نستعد أخيراً لمغادرة المركز إلي منازلنا في يومين أجازة ، قبل المغادرة جاءنا ضابط صف : " كل عسكري فيكم يحضر معه قالب طوب وهو راجع ، تأكدوا إنه جديد نوفي وبدون خدش " ..

لم تكن حالتنا – سواء نفسياً أو طيبياً - تسمح بأي طلبات صبيانية مثل هذا الطلب ، خاصة أن عدم عودة جورج قد رجحت بين الزملاء أنه مات في المستشفى !

كان أهم شيء يتحتم علينا فعله عند العودة للمنزل هو وقف النزيف الذي يفتك بمعدتنا ، ربما كان النزيف هو الذي رقق قلب العميد " ملوخية " فأعطانا تلك الساعات ! ربما وصلته أخبار غير سارة لا نعلمها عن جورج فعفي عنا ! ربما أجبرته ظروفنا الصحية علي التخلص منا في صورة أجازة كي نتعالج علي حسابنا ! الله أعلم !

كان معنا زملاء من أسوان ، لم تكن 48 ساعة تفيدهم في شيء ، فاضطرت أن أمر علي الخيام وأبحث لهم بين الزملاء عن يستضيفهم تلك الساعات ، لقد كانت حالة بعضهم الطبية حرجة أيضاً!

بمجرد عودتي للمنزل قمت بعمليات " رصد ومتابعة " بالمنطقة للحصول علي القالب ! حددت موقعا " **إستراتيجيا " قريبا** من منزلي كان أمامه بعض الطوب ! في المساء الداكن - اللي لون الزفت - انقضت يداي دون هواده علي قالب منهم ! سرت ليلتها وهو تحت ملابسي ، كنت أتلفت من خلفي ، إمسك حرامي ! حاجة تكسف ! أيام سودة !

كان أول شيء فعلناه عند عودتنا إلي مركز التدريب هو التجمع مع قوالب الطوب لرصها أمام أماكن الإقامة للسادة الضباط ! لم يتمكن بعض الزملاء من الحصول علي هذا القالب اللعين ، تم تجميعهم في مكان منفصل ووقفوا عدة ساعات في شمس الصحراء ، كنت معهم لمسؤوليتي عنهم ..

جاء ضابط الصف بوجهه الكئيب يصرخ فيهم : " قالب الطوب ده أهم عندنا من العسكري " !! والله الذي لا إله غيره سمعته يقول ذلك ، قلت لنفسي : " عليك أن تحفظ تلك الكلمات ولا تنساها عندما تغادر هذا البلد " ! كان هدفي إنهاء هذا الكابوس – الممتد لعام أغبر - علي " الجزمة القديمة " كي أعود إلي أمريكا التي قضيت بها شطراً من حياتي الجامعية ..

أحد الزملاء الذين فشلوا في إحضار قالب طوب وأمضي ساعتين – انتباه - في شمس الصحراء عقاباً قال لي : " لو الحرب قامت وفيه فرصة أنضم لإسرائيل سأفعل " !

أتذكر يوماً كنت في أتوبيس في مصر أثناء زيارة لي منذ سنوات قليلة ، كان بجواري شابان ، أخبر أحدهما الآخر أنه قام بتكسير الكثير من أجهزة الكمبيوتر بوحدته في آخر يوم من خدمته ، من دفع هذا الشاب لهذا سوي هؤلاء المرضي الذين يصدرون أوامر وهم في دورة المياه يطلقون مدافعهم الخارية؟!!

مازالت حادثة " قالب الطوب " هذه ترافقني بآلامها النفسية حتي الآن ، رغم مرور خمسة وثلاثين عاماً عليها ، كلما رأيت قوالب طوب مرصوفة في أي بلد أزره أتذكر تلك الأيام الهباب ! أحياناً يدفعني عقلي الباطن فأتلفت خلفي وأنا أقف أمام صفوف الطوب ، رغم أن المكان يقع علي بعد آلاف الكيلومترات من مصر !

مصيبة سوداء لو كان أجدادنا بنوا الأهرامات بهذا الأسلوب ! هل كان عندهم مرضي بين العسكر كهؤلاء الذين لا مكان لهم إلا المستشفيات العقلية؟!!

تصور معي أحد زملائي العساكر منذ آلاف السنين – الزميل " ماخناتوس " مثلاً – وهو نازل طحن بالصحراء ، كعب داير بمصر العليا من سبعة آلاف سنة بحثاً عن حجر بينوا به هرم خوفو! مأساة ! والله مأساة ! لقد وجد الآثاريون جثثاً لبعض عمال الأهرامات وهي مقيدة من خلف ، ربما فشل أحدهم في تنفيذ أمر ما شاذ أصدره أحد المرضي ، كصاحب قالب الطوب !!

كان بالمركز مريض آخر يشبه هذا " المعتوه " الذي طالبنا بإحضار قالب الطوب ! كان يتلذذ بجمع العساكر من أصحاب النظارات كي

ينظفوا غرفته ! كنت كلما رأيتَه يتجه نحو منطقة الخيام أعطي إشارة لأصدقائي كي يخلعوا نظاراتهم ! كانت الإشارة عبارة عن صفارة من فمي تسمع كل الخيام !

سمعت مريضا ثالثا منهم يقول لزميله : " العساكر الأطباء عندي في الوحدة يتمنون غسل جواربي من أجل يوم أجازة " !  
طبعا جوارب هؤلاء " الباشاوات " ليست عادية ! كانت رائحة الفسيخ تفوح منها علي بعد أمتار !! خميرة طبيعية من عبق التاريخ !  
حامض مركز - إف 500 د ج ..

هكذا الوضع ! مرضي فوق مرضي ! كل يسخر من هو تحته لشفاء أمراضه المستعصية ! العسكري يحمل الجميع فوق رأسه ! هو رز حلة العسكر المحروق ! محاصر بين النار والرماد ! لا خيار عنده إلا التنفيذ صامتا أو الجحيم ! والجحيم ست درجات ! تتوقف الدرجة حسب نوعية المريض وضعف العسكري ووضعه الاجتماعي ( سب الأم والأب - سب الدين - العنف - الحرمان من الأجازة - السجن الحربي - تجديد المدة ) !!

كان ما ذكرته منذ 35 سنة ! كان حينها هناك أمل ! أما اليوم فقد ماتت أمل وشبعت موت ، بعد أن ينست أمها بهية في الحصول علي ثمن العلاج !

قتلوا أخوها في الميادين !

قتلوا حسين وبهاء ونيفين !

حبسوا جيرانهم في الزنازين !

زغردي يا عدالة علي القوانين !

هامت بهية حزنا ! أقعدها المرض ! خبت ضوء عينيها الخضراويتن ، كاننا في لون حقولها الواسعة ! هي التي كانت تعطي ولا تنتظر ردا ! أقرضت الناس عبر البحار ! كأنها كانت لا تخشي الفقر !

كان الطعام يتساقط من سلة بهية من فيضه ففتركه لمن يحتاجه ! لكنها الآن تجلس في ركن غطته وغطته خيوط العنكبوت ! تنتظر حسنات المارة ! تخرج يدها وتخفي وجهها ! أصبحت تعيش يوما بيوم ! قد يمر يوم أو يومان عليها بلا طعام ! تشفق جلدتها لقسوة العطش ! تكاثرت عليها ديون الطعام ! تجاسرت عليها دواب الأرض تسلب ماءها ! في أعاصير الجوع تخرج بهية في الظلام ! تتستر بعتمة الليل في فاجعتها ! تخشي الفضيحة لو استيقظ الناس ! تتلفت حولها ! تستند الجدران ! تتلمس بأصابع مرتعشة القمامة ! أمام بعضها تقف ! بهية كانت من عيلة باشاوات ! بهية كانت ست البنات !جمال ورشاقة وخفة دم !

كل الجيران يذكرون ابنها إبراهيم ! مال وصحة وعضلات مفتولة ، وفوق ذلك أخلاق ! كان الجميع يتشرف ليتحدث معه كلمة ، حرف ! كان راجل صاحب عزوة وكرم ! عزوته دخلت كل بيوت المنطقة ! عزوة علمت الجيران القراءة والكتابة بالمجان ! عزوة كانت قوية وسخية ! كأنها تاج العلاء في مفرق الشرق !

أي طعام وشراب تتناوله بهية الآن؟! هل هذا كان طعامها وشرابها؟! شرابها كان عسلا صفياء ! طعامها كان لحما طريا ! جسدها كان رشيقا عفيا !

مات الولد بعد الولد ، وماتت أمل ، وبقيت بهية ! منحنية ، يضرب بأحشائها الجوع والعطش والفقر والمرض !

أيها الشاربون من دماء بهية ! يا من نهبتم أرضها وقتلتم ولدها ! يومئذ يوفيكم الله دينكم الحق ! ذلك يوم عسير !

رائف محمد الويشي

سانت لويس - ميزوري - أمريكا

[elwisheer@yahoo.com](mailto:elwisheer@yahoo.com)

: تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته

[www.thowarmisr.com](http://www.thowarmisr.com)